مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر

إحياء السنة

وإخماد البدعة

تأليف

العالم العامل الورع المجاهد

الداعى إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة

الشيخ عثمان بن فودى

تغمده الله برحمته

رمضان سنة ١٣٨١ هـ

مارس سنة ١٩٦٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

(قرآن کریم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

بقلم الأستاذ الدكتور محمد البهى

مدير جامعة الأزهر

كتاب إحياء السنة وإخماد البدعة ، أحد كتابين من نيف وعشرين كتابا ، للمصلح الشيخ عثمان بن محمد بن فودى (١٢٣٢ هـ - ١٨١٧ م) مؤسس النهضة الإسلامية الحالية فى إفريقية الغربية . أما الكتاب الثاني فهو : « حصن الأفهام من جيوش الأوهام »(*) .

والكتابان يكمل أحدهما الآخر : الأول منهما فى الجانب التطبيقى العملى للإسلام ، والثاني فى الجانب التصورى والعقيدى منه .

وربط الكتابين أحدهما بالآخر ترسم الصورة الجلية للمؤلف العالم الفاضل والمصلح الإسلامى الكبير . منهما معاً يتجلى عمله الإصلاحى والتجديدى ، ويتحدد هدفه من تأليفهما كما تتحدد الغاية من رسالته التى قام يدعو إليها طوال حياته .

دعوته الإصلاحية :

أراد هذا العالم المصلح أن يحقق فى القرن الثامن عشر ، ما دعا إليه ابن تيمية (٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م) من قبل فى القرن الرابع عشر ، من وجوب الفصل بين

(*) مطبعة الزاوية التيجانية بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ .

الإسلام ومبادئه من جانب ، وبين الآراء التى دخلت الجماعة الإسلامية على ممر الزمن ، واتصلت اتصالا وثيقا بتلك المبادىء من جانب آخر ، حتى أصبح من العسير أن يميز المسلم بين أصيلها وطارئها ، وبين ما هو من الإسلام ، وما هو دخيل عليه .

وقد سلك الشيخ عثمان بن فودى فى هـذه القضية : قضية الفصل بين ما هو إسلام وما ليس بإسلام ـ مسلـكا فى غاية البساطة ، وفى الوقت نفسه فى غاية القوة والوضوح . فعمد فى كتاب « إحياء السنة وإخماد البدعة » الذى نقدم له اليوم ، إلى بيان ما هى السنة التى يجب اتباعها فى المجال العملى والتطبيقى للإسلام ، وما هى البدعة التى يجب اجتنابها فى هذا المجال .

أما فى الـكتاب الثانى وهو كتاب : « حصن الأفهام من جيوش الأوهام » فقصد إلى مجال العقائد والتصورات ، وكشف عن أصل السنة وعما طرأ عليها من البدعة ، موضحا كل ذلك بالدليل من الـكتاب أو السنة أو الإجماع .

صلته بالحركة السلفية :

وعثمان بن فودى مما كتبه فى هذين الـكتابين ، يتضح أنه من أنصار الحركة السلفية التى تدعو إلى رجوع المسلمين إلى القرآن والسنة الصحيحة والتمسك بهما وجعلهما الأساسين اللذين يُردّ إليهما كل خلاف بين المسلمين ، واللذين يقوّم بهما كل رأى نسب إلى الإسلام أو كل عمل يُؤدَّى منسوبا إليه .

هو من أولئـكم الذين يجعلون من قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » شعار المسلمين فى كل وقت وفى كل جيل ،

بحيث لا يكون الإيمان بالعصمة إلا لله جل جلاله ، ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبحيث لا يكون الاتباع ولا تكون الطاعة واجبة إلا لما نص عليه كتاب الله ، ولما جاء فى الحديث الصحيح لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، وإلا لما وافق ما جاء فيهما موافقة صريحة واضحة من أقوال المسلمين .

تأثره بابن تيمية :

عثمان بن فودى هو أحد القلة من العلماء الذين تتلمذوا على كتب ابن تيمية ، بعد أن اتصلوا بها فى مكة عن طريق محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٦ هـ — ١٧٩٢ م) وهو ثانى اثنين من أصحاب الحركة السلفية من بين هؤلاء القلة فى إفريقية . أما الآخر فهو محمد بن على السنوسى الكبير (١٢٧٦ هـ - ١٨٥٩ م) فى شمال إفريقية . والحركة السلفية فى إفريقية وفى مصر مدينة لهذين العالمين ، وإن اختلفت المناطق التى تأثرت بكل واحد منهما .

فإذا كان لمحمد بن على السنوسى الكبير فضل على الحركات الإصلاحية فى شمال إفريقية وفى مصر ـ فعثمان بن فودى له هذا الفضل على تلك الحركة فى غرب إفريقية ، التى تشمل القطاع الجنوبي للجزائر وبلاد المغرب حتى المحيط الأطلسى جنوبا وغربا .

وإن العمل الذى قام به عثمان بن فودى فى هذين الكتابين لا يستحق ـ فحسبُ ـ التنويه به ، وإنما يدعو إلى اقتباسه والتلمذة عليه ، ثم الاستمرار فيه . إن كثيراً مما يشتبه على المسلمين فى أمر دينهم وفى مبادئه أو فى تطبيقاته ، يجد الحل الواضح إما فى هذا الكتاب أو فى ذاك .

ولا أريد أن آتى بأمثلة للقارىء من هذا الكتاب الذى أقدمه ، وهو كتاب : « إحياء السنة وإخماد البدعة » لتوضيح قيمة العمل الذى قام به هذا المصلح فى القرن الثامن عشر ، فى غرب إفريقية . فالكتاب بين يديه ، ومن السهل قراءة أى باب فيه . ومن قراءة هذا الباب تنكشف له القيمة الحقيقية لهذا العمل الجليل .

ولكنى فقط أذكر بعض الأمثلة مما كتبه فى الكتاب الثانى الذى يجب أن يُعنى الأزهر بطبعه على نفقته ، إسهاما منه فى تنوير العقلية الأزهرية نفسها ، فضلا عن تنوير الرأى العام الإسلامى .

أمثلة من كتاب « مصون الأفهام عن مبوسه الأوهام » :

فى هذا الكتاب الثانى يذكر هذا العالم الجليل المصلح ، ما كان من الأوهام التى صارت عقيدة لدى المسلمين خاصة بعلم الكلام فيقول :

« ومن تلك الأوهام اعتقاد بعضهم أن أحدا لا يحكم له بالإيمان والإسلام إلا بعد تعلم العقائد وأدلتها ، وما يناظر به الخصوم وما تحل به الشبهات على طريق المتكلمين ، مع الحفظ والعد والقدرة على العبارة بذلك كله ؛ وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع .

« قال الإمام العالم العلامة المحقق محمود بن أحمد القُونوى فى شرح العمدة للنسفى : ويحقق بطلان مذهبهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يفعل ذلك فى زمانه ، ولم يفعل ذلك الصديق زمن خلافته فى أهل الردة ، وكذا عمر رضى الله عنه لم يفعل ذلك زمن خلافته فى الزُطّ والأنباط (*) لما فتح سواد العراق ، مع قلة

(*) الزط : جيل من الهند أو السودان ، والأنباط : جيل من الناس كان يسكن سواد العراق (قراها) ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم .

أذهانهم وبلادة أفهامهم ، ولم يفعل ذلك أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كل من قام مقامهم إلى يومنا هذا ، ولو كان ما زعموا حقا لاشتغلوا بأحد أمرين : إما بالإعراض عن قبول إسلامهم ، أو بنصب متكلم حاذق بصير بالأدلة عالم بكيفية المحاجة ؛ ليعلمهم صناعة الكلام ، ثم بعد ذلك يحكمون بإيمانهم . وعند امتناعهم وامتناع كل من قام مقامهم إلى يومنا هـذا عن ذلك ـ ظهر أن ما ذهبوا إليه باطل ، لأنه خلاف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه العظام ، وغيرهم من الأئمة الكرام » [1] .

ويذكر ما كان منها خاصا بالتفرقة بين المسلم والمؤمن ـ وهى التفرقة المشهورة لدى علماء الكلام ـ فيقول :

« ومن تلك الأوهام رد بعضهم معنى المسلم إلى معنى المنافق ، لأن حقيقة المسلم عندهم من يظهر الإسلام وهو غير مؤمن فى قلبه ، وهذا عين النفاق . وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ؛ لأن حقيقة المسلم من يظهر الإسلام وهو مؤمن فى قلبه ، لأن الإيمان شرط فى حقيقة الإسلام .

قال عبد الرحمن السيوطى فى الكوكب الساطع :

وعمل الجوارح الإســـــلام وشرطه الإيمان والتمام

أما لفظ المسلم فيطلق مجازاً على المنافق لخفاء أمره علينا . اهـ » . [2]

ثم يذكر من الأوهام ما شاع أيضا فى تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدين يسر » فيقول :

---

(١) ص ١٠ ، ١١ . (٢) ص ٢٣ ، ٢٤ .

« ومن تلك الأوهام اعتقاد بعضهم أن قوله صلى الله عليه وسلم : « الدين يسر » يوجب التساهل ولو فى الواجبات والمحرمات . وإذا سمعوا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى البلدة قالوا : هذا مشدد ، إن دين الله يسر . وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ؛ لأن هذا التيسير المذكور فى هذا الحديث وغيره إنما يدخل فى باب النوافل ، ولا يدخل فى باب الواجبات التى أجمع المسلمون على إيجابها ، ولا فى باب المحرمات التى أجمع المسلمون على تحريمها إلا عند الضرورة ، كالتيمم عند عدم الماء أو القدرة على استعماله ، وكأكل الميتة للمضطر » . اهـ . (١)

كما يذكر ما شاع من الأوهام فى صلة المتأخرين بالمتقدمين فيقول :

« ومن تلك الأوهام أن بعضهم يعميه الحسد ويقول : الصواب ترك الاشتغال بالتواليف المؤلفة اليوم ، لأن تواليف الأئمة الأعلام الذين تقدموا لم تترك لنا شيئا نحتاج إليه ، وهم أوفر علما من الذين يؤلفون اليوم ، وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ، لأن كل عالم يراعى فى تأليفه هم أهل زمانه وأغراضهم ، لأنه العالم بذلك ؛ ولهذا كان تأليف كل عالم فى زمانه أنفع لأهل ذلك الزمان من تأليف غيره » (٢) . . كما يقول فى هذا الشأن أيضا :

« ومن تلك الأوهام أن بعضهم يستبعد أن يفتح الله لأحد ممن تأخر ما لم يفتح لأحد من شيوخهم فى باب العلم . وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ، فما يقال لفضل الله : ذا بكم ؟ إذ كان فضل الله تعالى لا يختص بالأزمنة والأمكنة ،

---

(١) ص ٤٥ .　　(٢) ص ٥٩ .

وهو تعالى قادر على كل شيء . كيف يستبعد ذلك ؟ قال تعالى : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » وقال تعالى : « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » [1] .

ولا يفوته أن يذكر بعض الأوهام التى صارت عقيدة فيما يختص بكتب التفسير فيقول :

« ومن تلك الأوهام اعتقاد بعضهم أن كل ما وجدوه فى كتب التفسير حق ، لأنها تفسير كلام الله . وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ، لأن كتب جهلة المفسرين مملوءة بالأباطيل وما لا يليق بالأنبياء ، ولذلك قال القاضى عياض فى الشفاء :

« ولا تلتفت إلى ما تجده فى كتب جهلة المفسرين والمؤرخين » [2] .

وأيضا لم يفته أن يذكر بعض الأوهام التى تتصل بأصحاب « الكشف » فيقول :

« ومن تلك الأوهام اعتقاد بعضهم أن كل من كان من أهل الكشوفات يصح الاقتداء به فى طريق السلوك إلى الله تعالى . وهذا أيضا باطل ووهم على الإجماع ؛ لأن الصواب أن كل من كان من أهل الكشوفات إن كان ممن عرف طريق السنة ظاهرا وباطنا يصح الاقتداء به فى طريق السلوك إلى الله ، وإلا بأن كان من أهل الكشوفات ولم يعرف طريق السنة فى السلوك إلى الله وجب تعليمه فقط ، ولا يصح الاقتداء به فى ذلك لأنه مجذوب مجرد » [3] .

---

(١) ص ٦٥ . (٢) ص ٦٦ . (٣) ص ٧١ ، ٧٢ .

مبادىء أساسية :

ولا يفوت هذا المصلح الكبير فى هذا الكتاب : « حصن الأفهام من جيوش الأوهام » أن يقرر بعض المبادىء الأساسية التى هى فى واقع أمرها منطق الآية الكريمة التى ذكرنا أنه متمسك بها ، على أنها شعار المسلمين فى فهمهم للإسلام وفى عملهم بمبادئه ، على نحو ما يذكر فى قوله :

« قال أحمد زروق فى عمدة المريد الصادق : إن السنة حجة على جميع الأمة ، وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة ؛ لأن السنة معصومة من الخطأ وصاحبها معصوم ، وسائر الأمة لم تثبت لهم العصمة إلا مع إجماعهم خاصة ، فإذا اجتمعوا تضمن إجماعهم دليلا شرعيا . ثم قال بعد كلام : نعرض ما جاءنا عن الأئمة على الكتاب والسنة ، فما قبلاه قبلناه . وما لم يقبلاه تركناه ، وإن كانوا من جنس من يقتدى به ؛ لا ردا له ولا اعتراضا عليه ؛ بل لأنا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره

وفى « المدخل » تجد بعضهم لا يعرف السنة ، بل لا يتبع إلا شيخه ، فإذا قلت له : السنة كذا وكذا ، يقول لك : كان شيخى يفعل كذا ، وطريق شيخى كذا ، ويصادم بذلك السنة الواضحة . انتهى . (*)

تصحيح المفاهيم الإسلامية :

كما لا يفوته أن يرد كثيرا من المفاهيم الإسلامية ـ التى حولها ضعف الأمة الإسلامية وركود الفهم لعلمائها ، إلى ما يجعلها بعيدة عن منطق الإسلام ومطلوب

(*) ص ٤١ .

مبادئه فى حياة الإنسان ـ يردها إلى وضعها الأول ، وهو ذلك الوضع الذى جعل من المؤمنين القلة أقوياء فى حمل رسالتهم وتبليغ حضارة الإسلام إلى جميع أرجاء الأرض فى وقت وجيز ، لم يعرفه التاريخ لرسالة سبقته أو لحركة قامت بعده .

فهو يوضح : كيف صار « التوكل » إلى معنى العجز ، ومعنى « الدعوة إلى الله » ـ إلى حب الرياسة ، ومعنى « الاجتهاد » إلى الغلو ، ومعنى « العفو » إلى الذل ، ومعنى « شرف النفس » إلى التيه ، ومعنى « الوجد » إلى الحقد ، ومعنى « الجود » إلى السرف ، ومعنى « الهيبة » إلى الكبر ، ومعنى « التواضع » إلى المهانة ، ومعنى « الاحتراس » إلى سوء الظن . ومعنى « الرقة » إلى الجزع ، ومعنى « الصبر » إلى القسوة ، ومعنى « سلامة القلب » إلى بله القلب ، ومعنى « الشكر » إلى الفخر ... إلخ (*)

* * *

مسلكه فى الإصلاح :

ولا شك أن هـذه النصوص التى اقتبسناها من كتاب : « حصين الأفهام من جيوش الأوهام » للعالم المصلح عثمان بن فودى تعبر ـ بجانب كتابه الذى نقدم له وهو : « إحياء السنة وإخماد البدعة » ـ تعبيرا واضحا عن مسلكه فى الإصلاح وهدفه من دعوته . وهو الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة فيما شجر بين المسلمين من خلاف ، وفيما تنازعوا فيه من أفهام ، وفيما اختلط عليهم من أمر دينهم ، بما طرأ على جماعتهم من عادات الأمم الأخرى وتقاليدها وطقوسها واعتقاداتها ، على ممر الأزمنة التى خالطوا فيها غيرهم ، والتى ضعفوا فيها واستكانوا ، وتلقوا ما لغيرهم بالقبول وجاكوه عن تأثر به .

(*) ص ٥٥ إلى ٥٨ .

الحركة السلفية وأثرها فى حركات الإصلاح :

إن القرن الثامن عشر الميلادى ـ بعد ما استولى الوهابيون على الحجاز وعلى عاصمته مكة ـ كان الربط الزمنى بين زعماء الحركة السلفية فى الأمة الإسلامية فى إفريقية وآسيا ، والتى أثرت فيما بعد فى حركات القرن التاسع عشر ، التى قام بها جمال الدين الأفغانى (١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م) ثم فى الحركات الإسلامية الإصلاحية والقومية ، فى ربوع هاتين القارتين فى القرن العشرين ـ وفى مقدمتها حركة التجديد للفيلسوف الكبير محمد إقبال (١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م) ـ والتى لم تزل حتى الآن تؤتي ثمارها .

جهاد المصلحين :

وأحمد بن تيمية كان الرائد الأول للنهضة الإسلامية ، لإعادة بناء المجتمع الإسلامى بدعوته التى أوذى فى سبيلها ، وهى الرجوع إلى الكتاب والسنة ، ونبذ التقليد والعصبية للمذاهب ، وطرح « الوسيلة » و « عصمة الإمامة » .

وعثمان بن فودى أحد خلفائه المبرزين فى القرن الثامن عشر ، الذين تتلمذوا فى مدرسته ، تلك المدرسة التى يسر أمرها إليهم الداعية المصلح محمد بن عبد الوهاب ، وإن لم يستطع هذا الداعية أن ينفذ بمنهج ابن تيمية وبأهدافه من دعوته ، فى حياة أتباعه حتى اليوم .

* * *

وقد لاقى عثمان بن فودى ـ كما لاقت الحركة السنوسية والزاوية السنوسية ، وكما لاقى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ـ من اضطهاد الاستعمار ، ومن إنكار أبناء وطنه لدعوته ، مثل ما لاقى ابن تيمية من اضطهاد التتار والصليبيين ،

ومن تآمر إخوانه فى الإسلام عليه . وتلك سنة إلهية ، سبقهم فيها إمام المصلحين ورسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد لاقى العنت من الداخل والخارج على السواء ، فى سبيل دعوته وإيمانه بها .

... والعاقبة للمؤمنين :

ولكن من السنن الإلهية أيضا أن النصر للمؤمنين وحدهم ، وأن الخلود فى الحياة والتاريخ ، للذين تحملوا الأذى فى سبيل المبادىء ، ولم يتحملوه فى سبيل إشباع شهوة البطن أو الفرج ، وعن طريق الترف والانحراف .

* * *

وقد كان طبع هذا الكتاب فى مطبعة الأزهر بإشراف إدارة الثقافة الإسلامية ، اتباعا لإرشادات فضيلة الأستاذ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر — ليس فحسبُ تمكينا للروابط بين نيجريا المسلمة ، وبين الجمهورية العربية المتحدة ، ولا تذكيرا بتلك النهضة الإسلامية التى شعّت فى القرن الثامن عشر فى غرب إفريقية ، بل كان من وراء ذلك أيضا تنوير الرأى الإسلامى العالمى بهذا المجهود الذى قام به زعيم الإصلاح الدينى فى غرب إفريقية .

وما أحوج المسلمين إلى إصلاحه فى وقتنا الحاضر ، وما أحوج علماء الأزهر فى مقدمة المسلمين أن يعرفوه ، ثم من بعد ذلك يسيرون فى طريقه ، حتى تبقى كلمة الله هى العليا ، وحتى تكون ريادتهم للدعوة الإسلامية ريادة سليمة ، وبذلك تعود للمسلمين عزتهم وكرامتهم .

* * *

وإذا ذكر التاريخ هذه النهضة الإسلامية ونتائجها فى تأليف هذا المصلح الكبير عثمان بن فودى ، فإنه سيذكر حتما أن من آثار هذا البعث الإسلامى ، وإحياء النهضة الإسلامية الأصيلة ، وإبعاد ما طرأ عليها من بدع وأوهام - إصلاح الأزهر الجديد ، فى عهد قائد الثورة جمال عبد الناصر .

* * *

وسيجزى الله خير الجزاء الأساتذة أعضاء اللجنة التي أشرفت على إخراج هذا الكتاب ، وكذلك كل من أشار وأسهم فى طبعه وإخراجه ؛ فإنه صادق الوعد إذ يقول : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » .

والله الموفق والمستعان ؟

القاهره فى { رمضان سنة ١٣٨١ / مارس سنة ١٩٦٢

دكتور محمد البهى
مدير جامعة الأزهر
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

مقدمة اللجنة

التى

أشرفت على إخراج الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرض من هذا الكتاب :

اسم هذا الكتاب يدل على الغرض منه ، وهو بذل الجهد : علما وعملا ودعوة ، فى إحياء السنة وإماتة البدعة ، والعود بالأمة الإسلامية إلى الحنيفية السمحة ، التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم بيضاء نقية ، واضحة الحجة ، بينة المحجة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك !

وقد أجمل المؤلف هذا الغرض فى مقدمته ، وأكده فى خاتمته ، وفصّله فيما بينهما من أبواب الكتاب .

* * *

ويشتمل الكتاب على ثلاثة وثلاثين باباً :

بدأها المؤلف بحد الكتاب والسنة والإجماع ؛ وبيان البدعة ، وأقسام البدع ، وما ينكر منها وما لا ينكر ؛ ثم أفاض فى آثار الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، فى بيان اتباع السنة . ثم بين فضيلة خير القرون ، وما يجب لسلفنا الصالح من الإجلال والإعظام .

وبعد ذلك تكلم على الإيمان والعقائد ، وطريق السنة فى أخذها من كتاب الله تعالى .

ثم قفى على العقائد بأبواب العبادات والمعاملات ، مبتدئا بقضاء الحاجة ، ومختتما بالإحسان .

أعلى درجات العبادة :

ولأن الإحسان أعلى درجات العبادة ، جعله المؤلف هو التصوف الحق ، الذى يتبع أحسن الهدى ، فى معاملة الخالق والخلق ، « فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

دعوة خاتم النبيين :

وفى خاتمة الكتاب ـ وهى التنبيهات السبعة التى ألحقها المؤلف بآخر أبوابه ـ يؤكد فيها مقصوده من كتابه ، ثم يوصى فيها كل مسلم : أن يبدأ بنفسه ، فيصونها بالمواظبة على أداء الفرائض واجتناب المحارم ؛ ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه ؛ ثم ينتقل بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ؛ ثم إلى أهل محلته وبلده ؛ ثم إلى السواد الذى يكتنف بلده ... وهكذا إلى أقصى أنحاء العالم .

وفى هذه الوصية يذكرنا المؤلف بدعوة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم وأنها عامة باقية إلى يوم القيامة ، فلتكن كذلك دعوة الداعين من أمته ، عامة باقية إلى يوم القيامة .

منهج المؤلف فى الدعوة :

وقد بين المؤلف فى مقدمة الكتاب وخاتمته ، منهجه فى الدعوة إلى الله تعالى ، وما ينبغى للداعى أن يأخذ به نفسه ، حتى تنجح دعوته وتؤتى أكلها بإذن ربها :

فمن ذلك : إخلاصه لله فى دعوته ونصيحته . ومتى أخلص فالله حسبه ، وهو المسئول عن إعانته . وليحذر الداعى الحذر كله أن يتلمس عيوب الناس . . فمن قصد إلى هتك أستار الناس فالله حسيبه وسائله ، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته ! ص ١٣ ، ص ٢٣٤ .

ومن ذلك : احتماله مشاق الأسفار فى الدعوة ، مع عفته وورعه . فليرحل الداعى الى الله ؛ ليعلم الناس دينهم وفرائض شرعهم ، وليصحب زاداً حلالا يأكل منه ؛ لأن أكثر الأطعمة لا تخلو من شبهة ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا » .

* * *

نصح الإيجاب ونصح الإرشاد :

ويرى المؤلف أن النصح نصحان : نصح إيجاب ونصح إرشاد :

فأما الأول ففى المأمورات المتفق على إيجابها ، والمنهيات المتفق على تحريمها.

وأما الثانى ، ففيما اختلف العلماء فيه . فالناصح الداعى إلى الله فى هذا المختلف فيه — إذا شاء — نصح إرشاد وإحسان ، مع بيان وجهته وحيطته فى دين الله عز وجل ، فإنه « قد انعقد الإجماع على أن آراء المجتهدين كلها مسالك إلى الجنة وطرق إلى الخيرات ... ويجوز تقليدهم فى كل رأى ، إلا ما خالف نص القرآن أو نص الحديث ، أو القواعد أو الإجماع أو القياس الجلى » ص ١٥ .

اختلاف الأئمة رحمة :

ويبين المؤلف فى منهجه الموجز الجامع ، أن اختلاف العلماء المجتهدين يسر ورحمة . وهو اختلاف فى الفروع التى تحتمل غير وجه واحد ، ولا تعدو — فى صحيح النظر - دائرة الفاضل والمفضول ، والجائز والمكروه ، من أمثال ما بثه المؤلف فى هذا الكتاب ، ونبه على أن النصح فيه إنما هو على سبيل البيان ، والورع والإحسان .

الخلاف فى العهد النبوى :

وقد وقع هذا الخلاف فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وخير القرون من أمته ، ومثله كمثل الخلاف فى القراءات التى أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم ، كلها جائز ، وإن كان فريق من الناس يختار بعضها دون بعض .

لا جرم أنه خلاف ينفع ولا يضر ، ويبشر ولا ينفر ، ويدعو إلى الوحدة والسلام ، لا إلى الفرقة والخصام .